د. خالد فهمي
كلية الآداب
جامعة المنوفية

العصر الحديث ضرورة معرفية وحضارية

إحياء تحقيق النصوص



مثل فعل الإحياء على الدوام، على الأقل في المناحي الفكرية والأدبية والفنية في العصر الحديث في الثقافة العربية، خطوة واسعة جدا على طريق اكتشاف الهوية، أو دعمها.

وفي كل مرة إحيائية برزت مجموعة كبيرة من علامات البهجة الحقيقية، مما أمكن معه النظر إلى عملية الإحياء من منظور الميلاد الجديد، الذي هو بداية الوعي بالذات في الوجود الحي المتعين من جانب، والنظر إليها مرة أخرى من منظور البهجة الفطرية التي يمكن تأمل معادل لها في بهجة الإنسان/ الطفل عند كل مرة يتقدم فيها نحو الوعي بعالمه، والإدراك لعلاقاته بهذا العالم.

كان جيل الرواد، الذي تمددت جغرافيته زمنيا لتغطي خريطة جانب كبير من القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، واعيا بمحددات هويته، وموائز حضارته، ومطالب معاصرته معا من جانب آخر، فتحرك بروح ناضجة موصولة بالشرق، غير مجافية لغيره، ومد جناحيه، فاحتضن العالم، وانتمى إلى الإنسانية.

كان شعورهم بالقدرة على صناعة «النهضة» قويا على ما يظهر من منجزهم. ولعل في إعادة إنتاج مصطلح النهضة عند كثير من المفكرين ما يقيم الحجة على ما نقرره في هذا المدخل.

وكان واحدا من أظهر مداخلهم لصناعة النهضة هو العناية بدراسة النصوص القديمة. لقد آمنوا أن بعض وجوه رعاية الفيلولوجيا نافع جدا، ومهم جدا.

لقد اجتمع في عقل جيل الرواد أهمية إعادة إحياء النصوص التراثية، مما لزم معه إحياء علم تحقيق النصوص، أو علم التصحيح العلمي لها، ونقد ما ينشر محققا منها.

وقد جاء اجتماع العقل هذا من طريقين هما:

أولا- طريق تطوير المنجز التراثي في مجال تصحيح النصوص، لاسيما في ميدان علم مصطلح الحديث.

ثانيا- طريق نقل السُّهمة التي أنجزها المستشرقون الغربيون بعد الاتصال المباشر بهم في الدوائر العلمية والأكاديمية المصرية تعيينا.

جدل الميلاد

لقد استمر المختصون زمانا يرون في منجز عبدالسلام هارون، رحمه الله، (ت١٩٨٨م) المتمثل في كتابه: «تحقيق



النصوص ونشرها»، أول عمل عربي في هذا الميدان، يقول د. وليد عبدالله المنيس (١): «وكأن لهذا الكتاب مكانة خاصة عند الباحثين والمحققين وطلاب العلم؛ كونه أول كتاب عربي في هذا الفن، يوضح مناهج هذا الفن ويعالج مشكلاته».

ثم كان أن كشف عن منجز الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (ت١٢٨٦هـ)، ليقفز إلى الذهن ضرورة مراجعة ما انتشر وشاع من أمر نسبة الميلاد الأول في الثقافة العربية المعاصرة لعبدالسلام هارون.

وليتقرر أحد أمرين ظاهرين:

الأول- أن أول من أنجز عملا عربيا في ميدان تحقيق النصوص التراثية، ونقد تحقيقها هو عمل المعلمي اليماني؛ لأنه أنجز كتابه في التحقيق وتصحيح النصوص في حيدر آباد الدكن بالهند أيام عمله في دائرة المعارف العثمانية، قبل عودته إلى مكة المكرمة ١٩٥٢م. والمعلوم أن عبدالسلام هارون أنجز كتابه ١٩٥٤م، مما يقضي بالأولية ليحيى المعلمي، رحمه الله. يقول محمد أجمل الإصلاحي: إنه «بيض الرسالة في حيدر آباد. وقد وصل الشيخ إلى مكة المكرمة سنة (١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م)، وأنت خبير أيضا بأن كتاب عبدالسلام هارون تحقيق النصوص ونشرها صدر ١٩٥٤م» (٢). ثم يقول: «وتبين من هذا التفصيل أن رسائل الشيخ هذه من أول ما كتب باللغة العربية في فن التحقيق، وأن الشيخ المعلمي، رحمه الله، أول عالم أفرد كتابا في أصول هذا الفن».

الثاني- أن ينسب أمر الأولية في الثقافة العربية المعاصرة للرجلين معا، بلا ادعاء انفراده.

على أن إهمال تأثير التقاليد الاستشراقية في تقرير أمر هذا الميلاد الأول في العصر الحديث أمر يبدو غريبا، ذلك أن جوتهلف برجشتراسر كان أسبق إلى خدمة هذا المجال المعرفي بما ألقاه من محاضرات (١٩٣١- ١٩٣٢م) في الجامعة المصرية بعنوان: «أصول نقد النصوص ونشر الكتب»، التي نشرها فيما بعد واحد من أهم المختصين هو الدكتور محمد حمدي البكري ١٩٦٩م.

وبهذا فإن دعوى الأولية حول جدل الميلاد أمر غير ذلك الذي يشيع في الكتابات المعنية،

لاسيما أن ثمة انتشارا نسبيا للعناية بقواعد تحقيق النصوص التراثية، وأصول نشرها، ونقدها نقدا علميا قبل عملي هارون والمعلمي معا.

وهو الانتشار الذي يظهر من ثقافة أصحابه صدوره عن روح تأثرت بتقاليد الفن في الثقافة الغربية على ما تكشف كتابات د. محمد مندور في مقدمة «قوانين الدواوين» لابن مماتي التي نشرها في مجلة الثقافة بالقاهرة ١٩٤٤م، ثم أعاد نشر ما كتبه في كتابه «في الميزان الجديد» في العام نفسه، وعلى ما تكشف عنه أيضا كتابات د. إبراهيم مدكور في مقدمة تحقيقه كتابه «الشفاء» لابن سينا الذي نشره في القاهرة ١٩٥٣م.

على أن الحق يقضي أن نقرر أن العمل بأصول تحقيق نصوص التراث كان قائما يمكن أن نرى آثاره في منجز الشيخ حسين بن علي المرصفي (ت ١٨٩٠م)، الذي تظهر آثار وعيه بأصول تحقيق النصوص، ونقدها، مما يدل على أن الإحياء الأول لعلم تحقيق النصوص ونقده في العصر الحديث مر بمرحلتين ظاهرتين على الأقل هما:

أولا- مرحلة البواكير والإرهاص.

ثانيا- مرحلة التأسيس والتنظير واستتمام الميلاد.

٣- الإحياء الأول في العصر الحديث: مقالة في الحدود

إن فحص منجز ما سميناه بالإحياء الأول لعلم تحقيق النصوص ونقده وتحليله، يكشف عن حدود ظاهرة يمكن أن نرسم جغرافيتها المعرفية، ونقيم الدليل على ما ندعو إليه من ضرورة الإحياء الجديد لهذا العلم.

وقد اتضح من خلال الفحص والتحليل لأدبيات هذا المنجز الممتد حضوره إلى اليوم مجموعة من الحدود الظاهرة يمكن الكشف عنها في ما يلي:

أولا- تنامي العناية بمحددات اختيار النصوص التراثية، والاتجاه نحو ضبط مجموعة من المعايير الحاكمة وراء هذه العملية.

ثانيا- استقرار النظر إلى علم تحقيق النصوص على أنه صناعة منظمة، تحتاج إلى: معرفة، وإجراءات، ومهارات، وأدوات.

ثالثا- تراكم أدبيات هذا العلم من دون تجديد حقيقي.

رابعا- استقرار عملياته في:

- اختيار النص.
- جمع نسخه ودراستها.
- المقابلة بين النسخ، وقراءة النص.
- التعليق على النص، وتخريج مكوناته، وتوثيقه.
- تكشيف محتوياته.
- خدمته بالدراسة والترجمة لصاحبه.
- تحريره، وإخراجه.

٤- الإحياء الجديد لعلم تحقيق النصوص ونقده: الآفاق المعرفية والحضارية

إن تأمل حدود الإحياء الأول للعلم في العصر الحديث، كاشف عن مجموعة معتبرة من علامات القصور والنقص أصابت أدبيات المنجز الذي امتد نحوا من خمسة وسبعين عاما.

ومن هنا، فإن النطاق المعرفي الذي يتمدد فيه هذا العلم بفضل أمرين مهمين جدا هما:

- جهد عدد من المؤسسات المعنية، لاسيما جهد معهد المخطوطات العربية، التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة، وغيره من المؤسسات المنتشرة في العالم العربي، كمركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، والمجامع اللغوية العربية، وغيرها من المراكز في عدد من العواصم العربية.
- جهد عدد من أبناء الجيل الجديد من المحققين والمنظرين في هذا الحقل.. ربما منح شرعية الدعوة إلى هذا الإحياء الجديد.

لقد بدأت جهود هؤلاء جميعا تفرز أو تنتج شيئا جديدا مفصلا، مستوعبا لما كان مجملا جدا في أدبيات الإحياء الأول الذي اضطلع به الأساتذة الرواد.

وهو الأمر الذي يبشر باستقلال معالجات عدد من قضايا هذا العلم وردت سريعة جدا في الأدبيات الرائدة السابقة.

وأعتقد أن هذا العلم مرشح للتفريع على ثلاثة فروع أساسية بشكل أولي هي:

أولا- فرع دراسة النص، والتقديم له، ودراسة ترجمة المؤلفين، والوصف المادي للأوعية (المخطوطات).

ثانيا- فرع لعمليات التحقيق، وإجراءاته، وأدواته، ومفاتيح التعامل مع النصوص، وتوثيقها، وقراءاتها، والتعليق عليها، ومعالجتها، واستكشافها.

ثالثا- فرع للتكشيف وصناعة الملاحق.

وهذا التقسيم الثلاثي في الإحياء الجديد، مرشح للزيادة عليه في المستقبل، بانضمام فروع جديدة تتعلق بمحاور من مثل:

أولا- فرع مقاصد علم تحقيق النصوص ونقده، ووظائفه.

ثانيا- فرع تأسيسي يتعلق بنظرية تحقيق النصوص، وتأصيلها صناعة، وملكة.

ثالثا- فرع لتحرير النصوص المحققة، وإخراجها، وتصميمها.

إن الأمة العربية مسؤولة بالمعنى العلمي والأخلاقي عن مجموعة من واجبات الوقت؛ لتستمر في الوجود ابتداء، ولتستجمع شروط نهضتها ومحددات هويتها انتهاء، وبعض أركان تحقيق ذلك والقيام به مفتاحه إعادة إحياء علم تحقيق النصوص ونقده.

إن مراجعة تاريخ النهضة في النسختين الغربية الحديثة، والنسخة العربية الحديثة أيضا، تكشف عن الإسهام المركزي للدرس الفيلولوجي في صناعة النهضة في نسخها جميعا.

وتحقيق النصوص هو قلب الدرس الفيلولوجي، أو هو عصب دراسة الآداب القديمة بمفهومها الواسع!

لقد رفع الغطاء عن حقيقة سكنت تاريخ الحضارة الحديثة، فظهر أن تحقيق النصوص كان هو الدم المتدفق في شرايينها!

الهوامش

١- انظر: مقدمة التراث العربي لعبدالسلام هارون، إصدارات مجلة «الوعي الإسلامي»، الكويت، الإصدار الثمانون، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص١٤. وانظر: «الإعلام بمن زار الكويت من الأعلام»، للدكتور وليد عبدالله المنيس، إصدارات مجلة «الوعي الإسلامي»، الإصدار١٩.

٢- مجموع رسائل في التحقيق وتصحيح النصوص للمعلمي، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد (٢٣)، مكة المكرمة، ١٤٣٤هـ، ص٩.